تاريخ الارسال: 2018/04/03 تاريخ النشر : جوان 2018

ثقافة الإستهلاك و تأثيرها على البيئة

أ. بن يحي سميرة أ.د. بلعيور الطاهر
جامعة جيجل

الملخص:

يهدف هذا المقال إلى تحديد تأثير ثقافة الإستهلاك على النظام البيئي الحالي، وذلك من خلال إلقاء الضوء على العلاقة التي تربط بين ثقافة الإستهلاك والبيئة. و قد قمنا بذكر مختلف المشكلات البيئية التي نتجت بسبب طغيان هذه الثقافة على المجتمعات الإنسانية و أسبابها. كما نقترح أيضا مجموعة من الآليات لمواجهة الثقافة الاستهلاكية التي تؤدي إلى التدهور البيئي و هذا بغرض الحد منه.

الكلمات المفتاحية: ثقافة الإستهلاك، البيئة، المشكلات البيئية.

abstract:

This article aims to determine the impact of consumer culture on the current environmental situation, highlighting the relationship between consumer culture and the environment. We will also mention the different environmental problems caused by the domination of this culture in the world. We also propose through this article mechanisms to confront the consumer culture that leads to the degradation of the environment.

Key word: consumer culture, environment, environmental issues.

مقدمة:

إن التحولات الإجتماعية والإقتصادية التي عرفتها المجتمعات المعاصرة - ومن ضمنها المجتمعات العربية- في ظل العولمة وانتشار تكنولوجيا المعلومات واستخدام الآلية في جميع نواحي الحياة خصوصا في قطاع الصناعة ، وكذا في ظل انتشار روح التنافس التجاري في السوق العالمية وكثرة المنتجين، نتج عنه تعدد السلع والمنتجات وتطور الخدمات، حول مجتمعاتنا إلى مجتمعات استهلاكية بالدرجة الأولى.

وهذا ما أكده زيجمونت بومان في كتابه العولمة: عند وصفه للمجتمعات المعاصرة وذلك بقوله: "العالم المتأثر بالعولمة لا يمكن السيطرة فيه على أحد وإن الكوكب كله في حالة خطورة مرتفعة، وعلى أي حال يمكن للمستهلكين أن يشتروا راحة قصيرة الأجل من السوق. لقد أغوتنا النزعة الاستهلاكية بقبول الحال غير المستقرة جدا لما بعد الحداثة، ولم توقفنا عن القلق غير أنها تقدم لنا مجموعة من الحلول قصيرة الأجل لشعورنا بعدم الرضا."[1] حيث يسعى الفرد دوما لإقتناء ما يعرض في السوق حتى ولو لم يكن ذلك ضروريا لإشباع حاجاته، لكنه يجد- ومع كثرة المنتجات والسلع والخدمات المعروضة- صعوبة في اختيار حاجياته فهو يحاول دائما اقتناء الأجود والأرخص. لذلك فقد تم الاعتماد على أساليب الإشهار للمنتجات التجارية والصناعية والخدماتية من خلال تأثيرها على اختيارات وتوجهات الفرد وسلوكه الشرائي، وتؤثر على ثقافة الاستهلاك.

وفي هذا السياق، فالثقافة الاستهلاكية تعتبر مظهرا من مظاهر الثقافة العامة للمجتمع المعاصر وانتشرت في ظل إقتصاد السوق والتطور العلمي والتقني والنمو الاجتماعي والاقتصادي " وهي في جوهرها ثقافة صور وتصوير، فقد أصبح إنتاج السلع التصورية جزء لا يتجزأ من ثقافة الإستهلاك. ويتمثل ذلك في التزايد المطرد والتقدم المذهل في صناعة الصور المتحركة وطباعة الصحف والمجلات."[2] فضلا على أنها وليدة الظروف والبيئة الاجتماعية التي تحيط بالفرد، وتساهم بشكل كبير في

تكوين وتشكيل هذه الثقافة. ودفعت الفرد لاستغلال الثروات البيئية بشكل مفرط وغير عقلاني لتلبية حاجاته الكثيرة والمتنامية باستمرار نتج عنه مخاطر بيئية ساهمت بشكل كبير في اختلال علاقة الفرد ببيئته لتلبية احتياجاته المتعددة.

وعلى هذا الأساس ،"فقد اعتبر أحد الباحثين أن العوامل التي تؤثر مباشرة على البيئة هي: عدد السكان و الإستهلاك و التكنولوجيا."[3]، فمشكلة الانفجار السكاني مثلا تحدث عندما يؤدي تضخم عدد السكان إلى حالة عدم التوازن بين حاجاتهم المتزايدة للاستهلاك وبين المواد المتوفرة، و مشكلة استنزاف المواد الطبيعية تحدث عند تزايد الطلب على هذه المواد مثل: المعادن والفحم الحجري والنفط والغاز الطبيعي نتيجة النمو السكاني و التقدم التكنولوجي المتزايد والمتسارع وتزايد معدلات الإستهلاك بشكل مستمر، يؤدي إلى نقصان المواد الطبيعية الغير متجددة.

وتكمن أهمية هذا الموضوع في معرفة تأثير تنامي ثقافة الاستهلاك على الفرد والمجتمع وانعكاساتها السلبية على البيئة والتنمية، من خلال الاستغلال غير عقلاني لمواردها واستهلاك مكونات البيئة الحية وغير الحية بطريقة غير رشيدة مما ينتج عنه حدوث اختلالات في النظام البيئي.

وبغرض التعرف على العلاقة الموجودة بين ثقافة الاستهلاك والبيئة وما ينتج عنها من مشكلات بيئية، نحاول الإجابة عن ذلك في هذا المقال من خلال التساؤل الرئيس التالي:

كيف تؤثر ثقافة الإستهلاك على النظام البيئي؟

و ينبثق عن هذا التساؤل الرئيس التساؤلات الفرعية التالية والتي تعتبر محاور لهذا المقال.

- ✓ ماذا نقصد بثقافة الإستهلاك؟ وماهي خصائصها؟
- ✓ ماهي المشكلات البيئية المترتبة عن تأثيرات ثقافة الإستهلاك؟
- ✓ ماهي المداخل النظرية المفسرة للعلاقة القائمة بين البيئة وثقافة الاستهلاك؟
- ✓ ما هي الآليات التي يستوجب استخدامها لمواجهة الثقافة الاستهلاكية للحد من التدهور البيئي؟

أولا: مفهوم ثقافة الاستهلاك وخصائصها

اهتمت العلوم الإجتماعية والإنسانية منذ القديم خاصة علم النفس وعلم الإقتصاد بدراسة موضوع الإستهلاك، بينما علم الاجتماع لم يول اهتماما للموضوع بشكل مستقل إلا منذ ثمانينات القرن العشرين. فلا نصادف كتبا سوسيولوجية متخصصة في دراسة الاستهلاك أو ثقافته إلا وكانت منشورة في حقبة الثمانينات، كما أنه لم تعقد أية مؤتمرات متخصصة بحيث تعتبر دراسة السلوك الاستهلاكي إضافة جديدة إلى ميدان علم الاجتماع، مع العلم أن موضوع الإستهلاك لا يعد حكرا على تخصص إجتماعي معين بل تمتد دراسته من قبل علم النفس، علم الإقتصاد، علم الإجتماع وحتى الجغرافيا البشرية من خلال دراستهم للعلاقة بين استهلاك الطعام وحجم السكان.

أ- مفهوم ثقافة الإستهلاك:

قدم الباحثون عدة تعاريف لمصطلح ثقافة الاستهلاك، حيث ركزت هذه التعاريف على أبعاد مختلفة حسب التخصصات والتوجهات الفكرية للباحثين نشير إلى البعض منها:

تعرف ثقافة الإستهلاك على أنها:" تلك الجوانب الثقافية المصاحبة للعملية الاستهلاكية، إنها مجموعة المعاني والرموز والصور التي تصاحب العملية الاستهلاكية، والتي تضفي على هذه العملية معناها وتحقق دلالتها في الحياة اليومية."[4]

كما تعرف أيضا بأنها:" عملية إهلاك القيمة الاستعمالية وتتجلى إما بصورة تجديد وتحوير المادة الاستهلاكية لأشكال جديدة ومغرية للاستهلاك في إطار عملية الإنتاج، أو بشكل إهلاك محض بفعل الاستعمال لحظة التملك بهدف تلبية الحاجات أو شراء شيء أو خدمة ما واستعمالها."[5]

وينظر إليها أيضا على أنها:" ليست ثقافة تحمل مظاهر ثقافات الشعوب التقليدية من قيم واعتقادات وفنون، بل تعنى بالدرجة الأولى الجوانب الغريزية بالإنسان، وبالمظاهر والكماليات الشكلية التي تحدد قيمة الإنسان بمقدار ما يقتنيه من أشياء مادية أو مال، وتعمل الثقافة الاستهلاكية على تحويل جميع مظاهر الثقافة الإنسانية وأبرزها الفنون إلى سلعة تجارية."[6]

كما تعتبر ثقافة الإستهلاك مظهرا من مظاهر الثقافة العامة في المجتمع، " فهي تحتوي على جوانب و أشياء مادية تعبر عنها السلع و المنتجات و طريقة عرضها، و أماكن العرض و البيع، كما تحتوي على أشياء أخرى معنوية تتجسد في القيم الإستخدامية أو الإستعمالية و التبادلية للسلع و المنتجات و الرموز التي تعكسها. و هي تشكل جزءا من تفكير الناس و تظهر في تفاعلاتهم مع الآخرين، وتتبلور في أنماطهم السلوكية و طرق معيشتهم و ممارساتهم الإستهلاكية، و تفضيلاتهم السلعية....يكتسبها أو يبتكرها أعضاء و جماعات المجتمع من الجماعات الإجتماعية التي ينتمون إليها و المؤسسات التعليمية و الدينية بالمجتمع ومن وسائل الإعلام فضلا عن التأثر بالمراكز العالمية لنشرها."[7]

ويتضح من هذه التعاريف أن ثقافة الاستهلاك لها بعدين أساسين يتمثلان في البعد المادي ويضم الجوانب المادية منها والبعد المعنوي والذي يتمثل في الرموز التي تعكسها السلع والخدمات .

وعلى ضوء ما سبق نقترح التعريف الإجرائي لثقافة الاستهلاك: وهي مجموعة من المبادئ التي تعتمد على الأفكار الفردية، والاجتماعية في تحديد طبيعة الاستهلاك للفرد الواحد أو الأسرة، وهي تمثل المعاني والرموز والصور التي تصاحب العملية الاستهلاكية أي أنها تمثل مجموعة المفاهيم والأفكار السائدة في مجتمع ما، والمرتبطة بالسلع والخدمات التي تتناسب مع طبيعة الاستهلاك البشري ضمن منظومة فكرية ثابتة وواضحة، والتي تؤدي إلى ظهور فكر ثقافي مؤثر على القطاع الاقتصادي في المجتمع، وتكتسب هذه الثقافة في مجملها من مختلف مؤسسات التنشئة الإجتماعية كالأسرة و المؤسسات التعليمية ووسائل الإعلام.....إلخ، بالإضافة إلى التأثر بالمراكز العالمية والتي تنشر هذه الثقافة.

ب-خصائص ثقافة الإستهلاك:

من خلال التعاريف السابقة لثقافة الإستهلاك يمكن استنتاج جملة من الخصائص التي تميزها سنذكر أهمها فيمايلي:

1- " توصف الثقافة الاستهلاكية بأنها مادية فهي تلتف حول استهلاك السلع المادية فلقد شهدت المجتمعات انتصارا للعقلانية الاقتصادية التي أزاحت الأعراف والقيم التقليدية لتنتج ثقافة حديثة تقوم على فكرة التبادل العقلاني. و لقد دعم من هذا نمو الإنتاج السلعي الكبير، وإقامة أسواق جديدة للسلع الإستهلاكية، و ظهور أنماط جديدة للتوزيع مثل مراكز التسوق و الأسواق الرقمية."[8]

2- " لا ترتبط الثقافة الإستهلاكية بالنواحي المادية فقط، و إنما تتمثل في جوانب معنوية تعد أهم جوانب الثقافة الإستهلاكية على الإطلاق و تتعلق باستهلاك المعاني والخبرات والصور."[9] فقد أصبح التسوق تعامل معنوي - و ليس مجرد تعامل اقتصادي- يكتسب من خلاله الفرد خبرات خاصة و يستدمج من خلاله مجموعة خاصة من الصور الذهنية." إن هذا الجانب المعنوي قد يطغى على الجانب المادي عندما يتحول فعل الشراء إلى هدف ثانوي و يتحول الاستمتاع بعملية الشراء إلى هدف أساسي وهو ما يطلق عليه الباحثون الإستهلاك البصري، حيث يصبح التجول في السوق هدفا في حد ذاته. ولهذه

العملية جانبان: الجانب الأول يرتبط بالإستمتاع الشخصي والمعنوي، و الجانب الثاني يرتبط بوعي الشخص بظهوره في السوق- أو في أسواق معينة- والصورة التي يخلقها لدى الآخرين من خلال هذا الظهور."[10]

3- " للثقافة الإستهلاكية خاصية إضفاء الطابع الأنيق المتميز على السلع و المنتجات، إذ يكون للمنتج أسلوب متميز يعبر عن تفرد صاحبه. و غالبا ما تعبر الثقافة الإستهلاكية عن ذلك بربط السلع و المنتجات بشخصيات معينة مثل: نجوم السينما أو الشخصيات العامة الناجحة ذات الأسلوب المتميز."[11] فثقافة الإستهلاك تخلق المعاني و الصور و تجسدها على نحو معين في أذهان و أفعال الناس لكي تدعم بذلك تمايزات إجتماعية معينة، و من ثمة فإنها تخلق لدى الناس رغبة كبيرة في التملك و الشراء أي المزيد من الإستهلاك.

4- " تتسم الثقافة الإستهلاكية بالتحول المستمر والسريع، ويظهر هذا التحول على مستويات عديدة. أولها مستوى عام يرتبط بقابلية المعاني التي ترتبط بقابلية ثقافة الإستهلاك للتحول.... أما المستوى الثاني فإنه ينكشف من خلال ذلك التناقض الذي تخلقه الثقافة الإستهلاكية بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون، ذلك أنها تخلق في نفوس الأفراد طموحات إستهلاكية كبيرة وتخلق في تصوراتهم أحلاما وردية ما هي في الواقع إلا يوتوبيا أو واقع مزيف... وبهذه الطريقة تحول كثير من المعاني والتصورات في مخيلة الأفراد، وتخلق في داخلهم ضروبا من التناقض قد لا تكون موجودة في ثقافتهم الأصلية. أما المستوى الثالث والأخير الذي يكشف تحولات ثقافة الإستهلاك وتناقضاتها فيرتبط بعلاقتها مع هذه الثقافة الأصلية أو التقليدية. فالمحقق أن الثقافة الإستهلاكية ثقافة حديثة أو هي جزء لا يتجزأ من هذه الثقافة ولكنها عندما تنتشر تختلط بالعناصر التقليدية وتستخدمها استخداما يحقق الأهداف النهائية لثقافة الإستهلاك. ويعكس هذا تناقضا في بنائها، حيث تعلي أحيانا من شأن العناصر الحديثة في الثقافة، وتعلي في أحيان أخرى من شأن العناصر التقليدية، وتجمع بينهما في كل الأحوال. والثقافة الإستهلاكية بهذا المعنى تعتبر عنصرا هاما في تحويل العناصر التقليدية وفي إعطائها معاني جديدة. ويترتب على هذه العملية ازدواجية ذات مستويين: الأولى هي الإزدواجية بين الجوانب الحديثة والجوانب التقليدية في الثقافة والثانية هي الإزدواجية داخل الثقافة التقليدية ذاتها بين العناصر المتكيفة مع الثقافة الإستهلاكية وتلك التي تقاومها."[12] فالمستهلك يتأثر بطبيعة التطورات الاستهلاكية التي تحصل حوله، مما يؤدي إلى تطور و تحول في ثقافته الإستهلاكية، فمثلاً اعتمد الناس قبل سنوات على استخدام الهواتف الخلوية العادية، والآن يستخدمون الهواتف الخلوية الذكية، كنتيجة من نتائج التطور المستمر.

5- " من طبيعة الثقافة الإستهلاكية أنها ثقافة رمزية تتأسس على الإنتاج المستمر للعلامات والرموز، فالمستهلكون على وعي بأنهم يتحدثون من خلال مظهرهم و ملبسهم، و السلع و الممارسات التي تحيط بهم. و ينسحب ذلك على السلوك في المنزل، كما ينسحب على السلوك في الأماكن العامة و أماكن قضاء وقت الفراغ و أماكن السوق. فالثقافة الإستهلاكية تخلق من الرموز ما يجعلنا نفهم ذواتنا وذوات الآخرين على نحو معين، وتمتد رمزية ثقافة الإستهلاك إلى الجانب التذوقي والجمالي في الثقافة. وتخضع الرموز والعلامات في ثقافة الإستهلاك إلى التغير المستمر و تتخلل كل المعاني الثقافية القائمة."[13] و نظرا لذلك تتحول العلاقات والتفاعل بين الأفراد والجماعات في المجتمع إلى نضال مستمر حول مجموعة من الرموز تستهدف خلق معاني معينة و تثبيتها في الأذهان.

6- " تتصف الثقافة الإستهلاكية بأنها ثقافة قهرية، تدفع الناس دفعا إلى الإستهلاك و الجري وراء طموحاتهم بصرف النظر عن الفوائد الفعلية المتحققة من ذلك. و هي قهرية لأنها تعتمد على عنصرين قهريين في إنتشارها: الأول هو التقليد الذي يدفع الناس إلى تكريس كل حياتهم ليحصلوا على كل ما حصل عليه أقرانهم الآخرون، و الثاني يأتي من التقاليد التي تنجح

الثقافة الإستهلاكية في استخدامها و توظيفها، ويظهر ذلك في حالة الإحتفال بالمناسبات التقليدية دينية كانت أو غير دينية حيث يتحول الإحتفال بالمناسبة إلى حفل استهلاكي من الطراز الأول."[14]

7- تظهر ثقافة الإستهلاك على ثلاثة مراحل:" تمثل الأولى في مجموعها الأسباب التي تدفع المستهلك نحو الإقبال على الشراء، أما المرحلة الثانية فهي تعبر عن الصور الذهنية و المعاني و التخيلات و الرموز المصاحبة لعملية الإستهلاك و الملازمة لها....ثم تأتي بعد ذلك المرحلة الثالثة و تعبر عن النتائج المترتبة على حيازة السلع و إمتلاك المنتجات و الحصول على بعض الخدمات و الإمتيازات، و ما تعكسه من رموز لها دلالات مادية كانت أو معنوية تظهر في مواقف متباينة في الحياة الخاصة و العامة."[15]

ثانيا: المشكلات البيئية المترتبة عن ثقافة الاستهلاك.

لقد تطورت دراسات الإستهلاك وشملت العديد من ميادين البحث فقد اهتمت بها الكثير من العلوم كعلم النفس، علم الإجتماع وعلم الإقتصاد وغيرهم. ولعل من بين العوامل الرئيسية التي ساهمت في تطور هذه الدراسات هو العمل على الحد من التلوث والتدهور البيئي الذي يسببه انتشار ثقافة الإستهلاك في المجتمعات المعاصرة (الدول المتقدمة وأيضا دول العالم الثالث)، فسعي الأفراد للعيش في رفاهية أدى إلى انتشار ثقافة الإستهلاك خصوصا في ظل الزيادة الضخمة للإنتاج التي كان سببه الأول التطور التكنولوجي، وذلك أثر بشكل سلبي على البيئة وترتب عنه الكثير من المشكلات البيئية. هذا الموضوع أضحى في الوقت الراهن من بين أولويات المسؤولين والمستهلكين على حد سواء " حيث يزداد القلق العام من الآثار الضارة التي تخلفها المنتجات الكيميائية على البيئة والتي تسبب أضرارا خطيرة بالصحة العامة."[16]

وقد أجمع المختصون والمهتمون بالبيئة في الكثير من الندوات والمؤتمرات البيئية على وجود علاقة بين المشكلات البيئية وثقافة الإستهلاك المنتشرة في العالم، "فمنذ مؤتمر ستوكهولم المتعلق بالبيئة البشرية الذي انعقد في بداية التسعينات من القرن الماضي، بدأ العالم يعترف بأن مشكلات البيئة لا تنفصل عن مشكلات الرفاه البشري ولا عن عملية التنمية الاقتصادية بصورة عامة، وأن كثيرا من الأشكال الحالية للتنمية تنحصر في الموارد البيئية التي يعتمد عليها معاش البشر ورفاهم في آخر المطاف. وبهذا الإعتراف أنشأت الأمم المتحدة اللجنة العالمية المكلفة بالبيئة والتنمية لدراسة هذه القضايا والتقدم بتوصيات في هذا الشأن."[17]

وقبل التطرق إلى هذه المشكلات سنقدم تعريفا للبيئة ومشكلاتها، حيث عرف إبراهيم مذكور البيئة في معجم العلوم الإجتماعية بأنها: " العوامل الخارجية التي يستجيب لها الفرد أو المجتمع بأسره إستجابة فعلية أو إستجابة إحتمالية، وذلك كالعوامل الجغرافية والمناخية من سطح ونباتات وموجودات وحرارة و رطوبة....والعوامل الثقافية التي تسود المجتمع والتي تؤثر في حياة الفرد والمجتمع، وشكلها وتطبعها بطابع معين."[18]

" وفي عام 1975م في إطار النشاطات الدولية عرفت البيئة في إجتماع بغداد للتربية البيئية بأنها العلاقة الأساسية القائمة بين العالم الطبيعي الفيزيائي والعالم الإجتماعي السياسي الذي صنع الإنسان ويلاحظ أن هذا التعريف أيضا عام مع تركيزه على الجانب الفيزيقي الإجتماعي."[19]

وتشير البيئة بصفة عامة إلى: " المحيط الكائن حول شيء. وقد يكون هذا الشيء إنسان أو حيوان أو برنامج حاسوب أو نفس الإنسان. و يتفق العلماء في الوقت الحاضر على أن مفهوم البيئة يشمل جميع الظروف والعوامل الخارجية التي تعيش فيها الكائنات الحية وتؤثر في العمليات التي تقوم بها. فالبيئة بالنسبة للإنسان- الإطار الذي يعيش فيه والذي يحتوي على التربة والماء والهواء وما يتضمنه كل عنصر من هذه العناصر الثلاثة من مكونات جمادية، وكائنات تنبض بالحياة. و ما يسود

هذا الإطار من مظاهر شتى من طقس ومناخ ورياح وأمطار وجاذبية ومغناطيسية...إلخ ومن علاقات متبادلة بين هذه العناصر."[20]

بينما المشكلة البيئية فتعني:" حدوث اختلال في توازن النظام البيئي، ويحدث اختلال توازن النظام البيئي عندما يتم التأثير على أحد مكوناته أو أكثر، فتتأثر بقية المكونات وتتبدل العلاقات القائمة بينها فيصبح غير قادر على الحفاظ على توازنه السابق. ويمكن القول ايضا ان المشاكل البيئية مثل حرائق الغابات، حرائق المراعي، اشتعال الغاز والنفط، الضوضاء، اشعاعات ضارة، زيادة كبيرة جدا في عدد سكان العالم، عمران، تصحر، استنزاف الاوزون، تلوث الهواء والماء والتربة، استنزاف الموارد الطبيعية، نفايات كثيرة يضاف الى ذلك الكثير من الملوثات كل ذلك دون الاخذ بعين الاعتبار للبيئة من حولنا."[21]

و يمكن إجمال المشكلات البيئية التي يعاني منها كوكبنا فيما يلي:

- ✓ مشكلة الإنفجار السكاني.
- ✓ مشكلة استنزاف مصادر الطاقة او الموارد الطبيعية.
- ✓ مشكلة النفايات.
- ✓ مشكلة تلوث كل من الماء والهواء والتربة.
- ✓ مشكلة التلوث الضوضائي و الإشعاعي
- ✓ مشكلة التصحر.

وقد أثر بشكل مباشر انتشار ثقافة الإستهلاك في المجتمعات المعاصرة على البيئة وترتب عنه هذه المشكلات البيئية، والتي نوجز أسبابها فيما يلي:[22]

1 . الانفجار السكاني وما يترتب عليه من اتساع نمو المدن، وما يترتب عليه من مشكلات الخدمات، وتوفير الضروريات للسكان وإجهاد التربة الزراعية لتوفير الغذاء، وهو يهدد البيئة ويؤدي إلى اختلال توازنها.

2 . نقص المعرفة عن البيئة، وهو الأمر الذي يترتب عليه عدم فهم المشكلات البيئية التي تزداد اتساعا يوما بعد يوم، ويصبح من الصعب إيجاد حلول لهذه المشكلة نظرا لعدم وضوح العلاقة المتبادلة بين الإنسان والبيئة.

3 . الاستغلال غير الرشيد للتكنولوجيا في البيئة، والذي يترتب عليه الإخلال بتوازن البيئة عن طريق استنزاف مزيد من الموارد الطبيعية في الصناعة، وما يرتبط بها من تلوث الهواء والماء والتربة والغذاء والضوضاء.

4 . اختلال القيم والاتجاهات، وهي تعتبر لب المشاكل البيئية، لأن اختلال القيم والاتجاهات انعكاس لمشكلات بيئية، كما أن القيم والاتجاهات تكتسب الصفة الاجتماعية من سلوك الناس تجاه بيئتهم، ويحكم على هذه القيم بالسلب والإيجاب من نتائج علاقة الإنسان بالبيئة.

5 . اختلال البيئة الاجتماعية، وهي الخاصة بممارسات الإنسان المتعلق بالتنمية الاقتصادية دون مراعاة لإمكانيات البيئة، والتي تنعكس على السلوك الاجتماعي والاقتصادي والسياسي تجاهها.

ويلاحظ تقرير اليونسكو(التربية البيئية على ضوء مؤتمر تبيليس،مارس1983)أن:" تلبية مختلف الحاجات البشرية، مقترنة بالإفراط في استهلاك الموارد وبنمو سكاني سريع، قد أحدثت ضغطا متزايدا على البيئة، وذلك إما بصورة مباشرة عن طريق الأفراد في استغلال الثروات غير المتجددة والطاقات الإنتاجية، أو بصورة غير مباشرة عن طريق إنتاج كميات هائلة من الفضلات والمخلفات تفوق قدرة البيئات الطبيعية على الاستيعاب والتنقية، بحيث أصبحنا نشهد ـ نتيجة لذلك - عملية

انقراض متسارعة لأنواع كثيرة من الحيوانات والنباتات. ومن جهة أخرى فإن استخدام منتجات العمل البشري وتوزيعها، والأشكال المتبعة للتنظيم الاجتماعي على الصعيد الوطني والدولي قد أدت في حالات عديدة إلى دفع جماعات بشرية كبيرة إلى هاوية الفقر والاغتراب عن الثقافة التي يعيشون بداخلها."[23]

والشكل الموالي يوضح العلاقة التي تربط بين الوضع البيئي والثقافة الإستهلاكية.

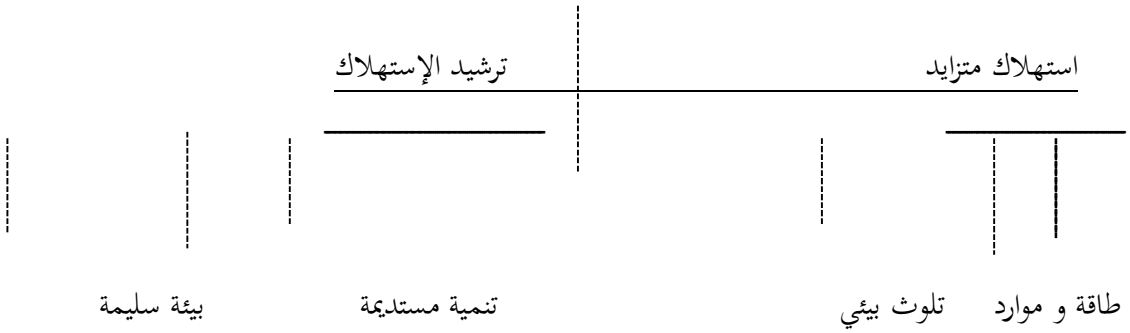

المصدر: صالح بن محمد الصغير: الاتجاهات والأطر النظرية لعلم الاجتماع البيئي ودورها في الأبحاث البيئية"دراسةنظرية"2000،www.Docs.Ksu.edu.sa/KSU_AFCs/Alsoghair،ص18

ومما سبق يمكن القول أن حماية البيئة أضحت في هذا العصر ضرورة ملحة يجب العمل على تحقيقها لاستمرارية وجود الإنسان والحيوان والنبات على الأرض وذلك من خلال إحداث تغيير في أنماط السلوك الإستهلاكي لأفراد المجتمع بحيث تتكون لديه ثقافة إستهلاكية تحافظ على التوازن البيئي وتحد من المشكلات البيئية الناتجة عن الاستهلاك المفرط للموارد الطبيعية.

ثالثا: المداخل النظرية المفسرة للعلاقة بين البيئة وثقافة الاستهلاك

أصبح موضوع البيئة حاليا من بين أهم المواضيع التي استقطبت اهتمام الكثير من الباحثين والمختصين سواء في العلوم الطبيعية أو الإجتماعية، وقد تبلور هذا الإهتمام في إسهاماتهم النظرية والتي تساعد على فهم البيئة ومشكلاتها وكيفية معالجتها. وقد اختلفت المداخل النظرية في علم الإجتماع عند دراستها للبيئة و مشكلاتها و طرق معالجة هذه المشكلات البيئية- كل تيار حسب توجهاته الفكرية-لكنها اشتركت في ربطها بثقافة الاستهلاك في المجتمع، لذلك وتمثلت هذه المداخل النظرية في الآتي:

1-المدخل الوظيفي: يعتبر أصحاب هذا المدخل أن المشكلات البيئية هي بمثابة وظيفة كامنة للتصنيع، وإحدى المعوقات الوظيفية التي تؤدي إلى الخلل في الوظيفة الاجتماعية للتصنيع.

"ويرى بعض علماء الاجتماع أن عمليات التصنيع، والتوزيع، والاستهلاك التي تؤدي إلى ارتفاع مستوى المعيشة، تؤدي في نفس الوقت إلى ظهور بعض المشكلات مثل مشكلة التلوث، واستنزاف الموارد. ومن ثم فإن التغيرات الاقتصادية التي تساعد على ظهور المجتمع الصناعي تؤدي في نفس الوقت إلى عدم التوازن البيئي، وبالتالي ظهور المشكلات البيئية المختلفة التي نعاني منها في العصر الحديث. و يمكن علاج المشكلات البيئية بسهولة من وجهة نظر كثير من الوظيفيين، عن طريق التخفيف من المعوقات الوظيفية للإقتصاد الصناعي."[24]

ويتم ذلك عن طريق استخدام الطرق والتكنولوجيا التي يمكنها التحكم في مشكلة التلوث وعلاجها، والمحافظة على الطاقة، والموارد الخام، وليس علينا إحداث التغيرات الأساسية في النظم الاجتماعية و الاقتصادية. و يوجد من الوظيفيين من يعارض

هذه النظرة، إذ يعتقد هؤلاء أن الإقتصاد الصناعي حاليا غير مستقر وينمو باستمرار للمحافظة على الرفاهية الإقتصادية، ولهذا فهو يستخدم الموارد الضرورية لهذا النمو.

" ويرى هؤلاء الوظيفيين أن الإصلاحات الصغيرة لا يمكن حل وعلاج المشكلات البيئية الحالية، ومن ثم يجب إجراء التغيرات الأساسية نظرا لأن كثيرا من القيم الأساسية في النظام الاجتماعي قد أصبحت تعد من بين المعوقات الوظيفية.....ويعد النسق الاقتصادي من بين المعوقات الوظيفية نظرا لأنه يؤدي إلى فقدان الموارد وتلوث البيئة من أجل إنتاج ما هو أكثر من الضروري لصحة ورفاهية البشر. ويرى هؤلاء الوظيفيون أن حل وعلاج الأزمة والمشكلات البيئية يتطلب إجراء التغيرات الأساسية في نسق القيم وإعادة تنظيم المجتمع."[25]

2- مدخل الصراع: يعتقد أصحاب هذا المدخل أن زيادة الكثافة السكانية وتلوث البيئة من المشكلات التي تترتب عن استغلال الدول الصناعية المتقدمة للدول النامية. و قد جاء استغلال البيئة كنتيجة للإستغلال الاجتماعي، فالدول الرأسمالية تتبنى نظما سياسية و اقتصادية تساعد على استغلال الأغنياء للفقراء، وعلى تدمير الثروة الطبيعية لتحقيق مصالح الأقلية (من يملكون القوة و الثروة).

" ويؤكد أصحاب مدخل الصراع أن علاج الأزمة أو المشكلات البيئية يتحقق عن طريق عدم التعامل بوحشية مع أنفسنا ومع البيئة التي نعيشها فيها وأن يتم وقف استغلال وتدمير البيئة الطبيعية، وأن يتم وضع رفاهية البشر في المقام الأول، ووضع الثروة وتحقيق الأرباح في المقام الثاني."[26]

3- المدخل التفاعلي: ينظر أصحاب المدخل التفاعلي إلى المشكلات البيئية باعتبارها ناتجة عن القيم والإيديولوجيات والإتجاهات التي يتم تعلمها.

" ويرى علماء النفس الاجتماعي أن ظهور المشكلات البيئية يرجع إلى الاتجاه نحو الاستغلال الكمي للبيئة، حيث يتم تقييم البيئة في ضوء بعض المصطلحات الكمية مثل إحصائيات الإنتاج، وليس عن طريق المصطلحات التي توضح مدى إسهامها في تحسين نوعية الحياة، والصحة، وسلامة العقل. كما يرى علماء النفس الاجتماعي أن الاتجاه نحو الحضرية يؤدي إلى تدمير النظم البيئية، وبالتالي إلى ظهور المشكلات البيئية."[27]

ويتم علاج هذه المشكلات حسب أصحاب المدخل التفاعلي عن طريق " عدم تعلم الإتجاهات التي تؤدي إلى تدمير البيئة واستنزاف مواردها، و لا يجب أن يتم نقل هذه الإتجاهات الضارة."[28] فظهور اتجاهات جديدة محل تلك الإتجاهات الضارة سيساعد على علاج المشكلات البيئية.

وبذلك فهذه المداخل النظرية تؤكد على وجود العلاقة الارتباطية التي تجمع بين ثقافة الاستهلاك والبيئة، إذ تتجلى هذه العلاقة في ظهور المشكلات البيئية في عصرنا الحالي نتيجة انتشار هذه الثقافة في المجتمع الإنساني. فقد أخدت العملية الاستهلاكية في ظل العولمة أبعادا جديدة لم نعهدها من قبل، فلم يعد الأمر يقتصر على مجرد إستهلاك السلع والخدمات المعروضة للبيع، ولكن في ظل الآليات الإعلامية الرهيبة التي تملكها العولمة والتنامي الرهيب لقدرة الشركات المتعددة الجنسيات في النفاد إلى الأسواق الوطنية والسيطرة عليها أصبح الإنسان محاصر بهالة ضخمة ومتنوعة من الآليات الداعمة لنشر الثقافة الاستهلاكية. ومن الوسائل التي ساعدت في انتشار هذه الثقافة وسائل الإعلام وما تبثه من إعلانات لمختلف السلع و الخدمات، و التي أدت إلى تدوين ثقافة الإستهلاك وإعلاء قيم الفردية والبحث عن المتعة والحرية من خلال الاستهلاك.

رابعا: الآليات لمواجهة الثقافة الاستهلاكية للحد من التدهور البيئي

تتطلب مواجهة ثقافة الاستهلاك التي تؤدي إلى التدهور البيئي تضافر كل جهود أفراد المجتمع سواء كانوا مستهلكين ،مختصين ، المجتمع المدني ومسؤولين ولهذا الغرض – وبناءا على ما سبق من تراث نظري- نقترح جملة من الأليات للحد من التدهور البيئي تتمثل فيما يلي:

- ✓ ضرورة وجود جمعيات لحماية المستهلك وتوعيته بضرورة حماية البيئة من كل الآثار السلبية للإستهلاك، والعمل بالتنسيق مع الهيئات المهتمة بالمحافظة على البيئة من أجل تحقيق هذا الهدف." وقد أدى ارتفاع الوعي الإجتماعي لدى مواطني الدول المتقدمة اقتصاديا إلى زيادة الضغط على المنتجين هناك من أجل إبتكار وسائل و طرق إنتاجية و منتجات جديدة لا تؤذي البيئة."[29]
- ✓ تفعيل دور وسائل الإعلام في مواجهة الثقافة الإستهلاكية والحث على تنمية الوعي البيئي وترشيد الاستهلاك ، فضلا على تشجيع المشاركة الشعبية في المشاريع والسياسات المختلفة للمحافظة على البيئة.
- ✓ الإهتمام بالتربية البيئية لجميع الأطوار التعليمية لتوعية التلاميذ من خلال البرامج التعليمية ، بضرورة الحفاظ على البيئة والإستهلاك العقلاني لمواردها عند إشباعهم لمختلف احتياجاتهم الإستهلاكية.
- ✓ التركيز على دور مؤسسات التنشئة الإجتماعية المختلفة في توعية الأطفال والمراهقين وحتى الشباب بالتأثيرات السلبية لثقافة الاستهلاك على النظام البيئي، باعتبار هؤلاء هم الأكثر تأثرا بهذه الثقافة، فهم يتنافسون فيما بينهم في المجال الإستهلاكي.
- ✓ إنجاز دراسات علمية إجتماعية وإقتصادية من طرف مختصين وباحثين، تساعد على فهم ثقافة الإستهلاك باعتبارها ظاهرة إجتماعية وإقتصادية وتوضيح تأثيراتها السلبية على البيئة.

الخاتمة:

تعتبر ثقافة الاستهلاك ظاهرة اجتماعية واقتصادية عرفتها المجتمعات المعاصرة أدت ظهور مشكلات بيئية نتيجة زيادة الاستهلاك الذي أدى إلى استنزاف الموارد الطبيعية وحدوث تلوث بيئي ولكن بطبيعة الحال هناك وسائل وطرق يمكن أن تعزز الوعي الاستهلاكي لدى أفراد المجتمع وبشكل كبير، حيث يجب العمل على تنمية الوعي العام حتى يتكيف مع المتغيرات الاقتصادية التي تطرأ على الأسواق المحلية، وعلى إيجاد السبل والطرق التي يمكن أن يستفيد منها المستهلك في اختيار وتحديد احتياجاته الاستهلاكية الفعلية دون التأثر بالعوامل الخارجية خصوصا أن هذا التطور والتقدم أدى إلى انتشار منتجات وسلع تؤثر على التوازن البيئي، مع العلم أن التوازن البيئي يرتبط بشكل كبير بسلوك الإنسان الصحيح نحو مكونات البيئة وأن التقنية لا خوف منها على توازن البيئة إذا أحسن استخدامها، وقد تسهم في التخفيف من المشكلات البيئية. وبالتالي يؤدي إلى تنمية مستدامة وبيئة سليمة.

ويتوقف تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية والتي تهدف لتحسين نوعية حياة أفراد المجتمع اقتصاديا واجتماعيا ونفسيا على توظيف التكنولوجيا الحديثة بما يخدم أهداف المجتمع، ويتم ذلك عن طريق توعية الأفراد بأهمية التقنيات الحديثة المختلفة في المجال التنموي وكيفية استخدامها دون أن ينتج عن ذلك مخاطر بيئية.

الهوامش:

[1]- جون سكوت: خمسون عالما إجتماعيا أساسيا- المنظرون المعاصرون، ترجمة محمود محمد حلمي ط1، الشبكة العربية للأبحاث، بيروت، لبنان، 2009، ص93

[2]- أحمد زايد: علم الاجتماع ودراسة المجتمع-المداخل النظرية، ط1، القاهرة، (د.ن)،2005،2006، ص120

[3]- يوسف عنصر: حماية البيئة: مسؤولية من؟، من فعاليات الملتقى الوطني حول البيئة و المجتمع، مخبر علم إجتماع الإتصال للبحث والترجمة، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 2011، ص96

[4]- أمال عبد الرحيم: اتجاهات الطالبة السعودية نحو ثقافة ترشيد الإستهلاك، مجلة جامعة دمشق، المجلد28، العدد الأول، سوريا، 2012، ص ص185،186

[5]- سماح حسين القاضي: تلفزيون الواقع و نشر الثقافة الإستهلاكية– دراسة ميدانية (طلبة جامعة دمشق)، إشراف حميدة سميسم، رسالة ماجستير في الإعلام تخصص تلفزيون، كلية الإعلام، جامعة الشرق الأوسط للدراسات العليا، عمان، الأردن، 2009، ص15

[6]- عبد الله الجسمي: الهوية وثقافة العولمة، دار التنوير للنشر، العين، الإمارات العربية المتحدة، 2008، ص193

[7]- السيد محمد الرامخ: علم الإجتماع الإقتصادي- دراسات نظرية و تطبيقية، ط1، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 2008، ص144

[8]- أحمد زايد، مرجع سابق، ص119

[9]- سامية حسن الساعاتي: فضاءات التنشئة الإجتماعية و ثقافة الإستهلاك، مجلة إتحاد إذاعات الدول العربية، عدد01، مصر، 2006، ص26

[10]- أحمد زايد، مرجع سابق، ص120

[11]- سامية حسن الساعاتي، مرجع سابق، ص26

[12]- أحمد زايد، مرجع سابق، ص121

[13]- سامية حسن الساعاتي، مرجع سابق، ص27

[14]- المرجع السابق، نفس الصفحة.

[15]- السيد محمد الرامخ، مرجع سابق، ص149

[16]- عنبر إبراهيم شلاش: إدارة الترويج و الإتصالات، ط1، دار الثقافة، عمان، الأردن، 2011، ص112

[17]- رضا عبد الواجد أمين: الإعلام ودوره في الوعي بقضايا التنمية المستدامة، مجلة الإذاعات العربية، عدد1، مصر، 2011، ص92

[18]- إبراهيم مذكور: معجم العلوم الاجتماعية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1975، ص103

[19]- سوزان أحمد أبو رية: الإنسان والبيئة والمجتمع، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 2008، ص31

[20]- علي عبد الفتاح كنعان: الإعلام البيئي، دار اليازوري، عمان، الأردن، 2014، ص ص08،09

[21]- محسن محمد أمين قادر: التربية والوعي البيئي وأثر الضريبة في الحد من التلوث البيئي، إشراف خالد كاطع الفرطوسي، رسالة ماجستير في العلوم البيئية، كلية الإداراة و الإقتصاد، الأكاديمية العربية المفتوحة في الدانمارك، 2009، ص21

[22]- حسين عبد الحميد أحمد رشوان :البيئة والمجتمع، المكتب الجامعي الحديث، مصر، 2006،ص ص21،22

[23]- محمد الجوهري و اخرون: علم إجتماع البيئة، ط1، دار المسيرة، عمان، الأردن، 2010، ص39

[24]- وفاء محمد علي: مدخل لدراسة البيئة، ط1، المكتب العربي للمعارف، القاهرة، مصر، 2014، ص ص51،52

[25]- المرجع السابق، ص52

[26]- المرجع السابق، ص54

[27]- المرجع السابق، ص55

[28]- المرجع السابق، ص57

[29]- عنبر إبراهيم شلاش، مرجع سابق، ص113